

مجلة الشهاب • المجلد: 08، العدد: 01 (2022م) • ص ص 713 - 730
(ISSN: 2477-9954, EISSN: 2602-5485)

بيان المجمع الفاتيكاني الثاني ومبادرة الحوار الإسلامي – المسيحي

Statement of the Second Vatican Council and the Islamic-Christian Dialogue Initiative

د/ خديجة جوادة *

جامعة الجزائر1 (الجزائر)

Khadidjadjouada92@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/08/23 تاريخ القبول: 2021/12/30 تاريخ النشر: 2022/03/15



ملخص: يتناول هذا البحث المبادرة التي جاء بها الفاتيكان لفتح مجال الحوار الإسلامي-المسيحي، خاصة بعد التغيرات السياسية والحضارية، التي شهدها منتصف القرن العشرين، والذي كان فيه المجمع الفاتيكاني الثاني نقطة مفصلية في تاريخ دولة الفاتيكان، وتغير نظرتها نحو الإسلام والمسلمين عقديا ودينيا.

وبناء على ذلك سنتناول من خلال هذا البحث، أولا التعريف بدولة الفاتيكان ونشأتها ومكانتها الدينية والسياسية في العالم المسيحي، باعتبارها قائد أكبر الطوائف المسيحية عبر العالم، والممثل الأول عن الكاثوليك، وثانيا التعريف بالمجمع الفاتيكاني الثاني وبداية الانفتاح على الحوار الإسلامي المسيحي، والأسس التي قامت عليها هذه المبادرة، والقيام بتحليل نقدي لما اشتمل عليه البيان الختامي لمجمع الفاتيكاني الثاني في الجزء المخصص في ضبط العلاقة بين الكنيسة الكاثوليكية والمسلمين.

الكلمات المفتاحية: الفاتيكان؛ الحوار؛ الحوار الإسلامي المسيحي، المجمع الفاتيكاني الثاني.

Abstract : This research deals with the Vatican's initiative to open the field of Islamic-Christian dialogue, especially after the political and cultural changes of the mid-20th century, in which the Second Vatican Council was a focal point in the history of the Vatican state, and its view of Islam and Muslims changed doctrinally and religiously .

Accordingly, through this research, we will first give the introduction of the Vatican State, its origins and its religious and political status in the Christian world, as the leader of the largest Christian communities around the world, and the first representative of Catholics, Secondly, the introduction of the Second Vatican Council and the beginning of openness to the Islamic-Christian dialogue, and the foundations on which this initiative was founded. and A critical analysis of what included the final statement of the Second Vatican Council in the section devoted to controlling the relationship between the Catholic Church and Muslims.

Keywords: Vatican; dialogue; Islamic-Christian dialogue; the Second Vatican Council.

* المؤلف المراسل.

1. مقدمة:

يمثل الحوار قيمة من قيم الحضارة الإسلامية، المستندة أساسا إلى مبادئ الدين الإسلامي وتعاليمه السمحاء، وهو موقف فكري يعبّر عن أبرز سمات الشخصية الإسلامية السّوية، وهي سمة التسامح لا بمعنى التخاذل والضعف، ولكن بمعنى الترفع عن الصغائر والتسامي عن الضغائن، فللحوار أسس قرآنية يستند إليها على أساس التفاعل الحضاري الذي يرتكز على مبدأ التدافع الحضاري لا الصراع، وهو مبدأ قرآني محض، والذي نجد له أصلا في قوله تعالى: ﴿ ... وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝ ﴾ (الحج: 40)، فالتفاعل في المنظور الإسلامي هي عملية تدافع لا تنازع، وتحاور لا تناحر، كما أن الحوار دائم ومطرد ينشد الخير والحق والعدل والتسامح للإنسانية قاطبة، ولا يسعى في الأرض بفساد، بل يسعى إلى تفاهم خالص بين أتباع مختلف أديان المعمورة، ويتطلب من الأطراف المشاركة فيه موقفا إنسانيا يتيح لهم اختراق جدار التعصب والأحكام المسبقة والأفكار المغلوطة والنزاعات الداعية إلى العنف، ذلك الجدار الذي عهدناه لا يكاد ينهدم حتى يقوم من جديد بين الأديان.

فنجد أن العصر الحديث شهد تغيرات جذرية في العلاقات بين أتباع الأديان وفي مقدمتها العلاقات الإسلامية المسيحية، التي كانت تتسم بالصراع والتصادم عبر التاريخ، ولكن مع بداية طي الفترة الاستعمارية التي اقتسم فيها العالم المسيحي أملاك الرجل المريض، الممتدة على العالم الإسلامي، جاءت انتفاضة الشعوب الإسلامية ضد الاستعمار وكل ما يرتبط به، وعلى رأسهم الكنيسة المسيحية.

إلّا أنّ الدول الاستعمارية لم تبق مكتوفة الأيدي أمام تحرر الشعوب الإسلامية منها، وتبدد مصالحها على أراضيها، بل كان إيجاد سبل جديدة لاستعمار جديد ضرورة حتمية بالنسبة لها، فكان الغزو الثقافي والاقتصادي والتجاري والتبعية، شكل من أشكال التحكم في الشعوب الإسلامية، وكذلك كان شأن الكنيسة المسيحية وفي مقدمتها الكنيسة الكاثوليكية التي كانت مرافقة للاستعمار العسكري في كل خطواته، وكانت مبادرة فتح الحوار الإسلامي- المسيحي الصيغة الجديدة لمصالحها على الأراضي الإسلامية.

من هنا تأتي إشكالية بحثنا الذي يتناول مسألة الحوار الإسلامي – المسيحي تحليلا ونقدا من خلال أحد أهم المؤسسات الداعية إليه، وهي مؤسسة الفاتيكان الممثل الأول عن العالم المسيحي الكاثوليكي، والهيئة الرسمية الناطقة عن آراء الكنيسة الكاثوليكية، والتي كان المجمع الفاتيكاني الثاني الذي دعت إليه نقطة مفصلية في التاريخ المعاصر للكنيسة الكاثوليكية وعلاقتها بغيرها، فأردنا من خلال هذا البحث الإجابة عن العديد من التساؤلات المعرفية المتعلقة به، أهمها:

كيف نشأت دولة الفاتيكان؟ وما هي مكانتها الدينية والسياسية في العالم المسيحي؟ وما هي مرتكزات وأسس الفاتيكان في طرحه لمبادرة الحوار الإسلامي المسيحي؟ وما هي أهم النقاط الذي تناولها البيان الختامي لمجمع الفاتيكاني الثاني؟ وكيف كانت ردود الفعل عليه من كلا الجانبين؟

ومن خلال الإجابة على مختلف التساؤلات التي يطرحها البحث التي ترنو إلى جملة من الأهداف

المنهجية والعلمية، التي تعرف بالفاتيكان دولة ومؤسسة دينية تقود العالم المسيحي، مع رسم المعالم الكبرى لمبادرة الحوار التي تطرحها الفاتيكان وأهدافها ومراميها مع إيضاحها وعرضها على النقد والتمحيص والشرح، مستعملين في ذلك مناهج علمية متكاملة أبرزها المنهج الوصفي الذي يعرف ويسرد التعريف المتكامل بدولة الفاتيكان، مع المنهج الاستقرائي والتحليلي للبيان الختامي الذي صدر عن المجمع الفاتيكاني الثاني في جانبه الخاص بمبادرة الحوار الإسلامي – المسيحي.

2. التعريف بدولة الفاتيكان ومكانته الدينية والسياسية.

تعتبر الفاتيكان المركز الروحي الذي يقوم بتوجيه الكنيسة الرومانية الكاثوليكية كبرى الكنائس المسيحية في العالم، وبالرغم من صغر مساحته، إلا أن نفوذه يشمل الملايين من المسيحيين الكاثوليك في جميع أنحاء العالم، ويرأس البابا الكنيسة الكاثوليكية الواقعة وسط مدينة روما الإيطالية، غير أنّ أراضيها تعّد أراضي أجنبية بالنسبة للإيطاليين، لأنها دولة مستقلة ذات سيادة.

1.2. الفاتيكان النشأة والتاريخ.

تعود تسمية الفاتيكان "Vatican" من الاسم اللاتيني "Vaticanus" ومن اسم المكان "فاتيكوم" وهي من لغة الأتروسكين سكان المدينة القدماء[1]، وبالإيطالية "ستاتوديلا تشيات ديل فاتيكانو" (stato della cita del vaticano) (دولة مدينة الفاتيكان)، ولفظ الفاتيكان هو الاسم الذي يطلق على المدينة والدولة على حدّ سواء[2] .

يعّد الفاتيكان أصغر دولة في العالم، حيث تبلغ مساحته 44 هكتار، وهي مقر الكنيسة الكاثوليكية، تقع في جنوب أوربا في قلب العاصمة الإيطالية "روما"، يحكمها البابا، حيث كان استقلالها عن إيطاليا يوم 11 فبراير 1929، وتتمتع بأكبر إشعاع روحي لدى المسيحيين الكاثوليك لأنها مقر خليفة الرسول بطرس، أي "البابا" الذي يعّد هو نائب المسيح على الأرض بالنسبة للكاثوليك، فالفاتيكان هو مركز أجهزة الإدارة للكنيسة الرومانية التي تساعد أسقف روما في خدمته للكنيسة الكاثوليكية، وفي حواره مع المسيحيين الآخرين سواء مع المؤمنين أو غير المؤمنين، ومع المنظمات الدولية والدول التي تقيم معها الفاتيكان علاقات دبلوماسية البالغة 159 دولة عبر العالم [3].

كانت هضبة الفاتيكان عبارة عن موقع لمتنزه ومدرج للإمبراطورية الرومانية في عهد "نيرون"، ولقي العديد من المسيحيين حتفهم على تلك الهضبة، أيام اضطهاد الإمبراطورية الرومانية للمسيحيين، وهناك إجماع لدى هؤلاء بأنّ القديس بطرس مات في ذلك المكان ودفن فيه أيضا، ليصبح قبره فيما بعد محجا يجذب إليه الحجاج، وأول تأكيد على ذلك جاء في حدود عام 333م، على لسان الأسقف "أوسابيوس القيصري" الذي تحدث عن قبر يهرع إليه كما تحج إلى محراب الرّب وهيكله جموع لا تعّد من الإمبراطورية الرومانية بأسرها[4].

أنشأ الإمبراطور النصراني قسطنطين في القرن الرابع الميلادي بازيليك فوق البقعة نفسها التي كان يظن

أنّ القديس بطرس مدفون بها، وهي قداسة مستوحاة من الكتاب المقدس حينما أعطى المسيح السلطة من بعده لسمعان بطرس فيقول: "أنت صخر وعلى هذه الصخرة سأبني كنيستي وقوات الموت لن تقوى عليها"[5]، وفيما بعد تمّ تشييد قصر الفاتيكان والمباني الأخرى تدريجيا حول البازيليك، وكان المركز السكني الرئيسي للباباوات في العصور الوسطى قصر "لاتيران" بروما، وليس الفاتيكان، بينما أقام الباباوات "آفينون" بفرنسا (1309- 1377م) وعند عودتهم إلى روما وجدوا قصر "لاتيران" قد احترق فانتقلوا إلى الفاتيكان، ثمّ شيّدت كنيسة القديس بطرس في القرن السادس عشر (16م) فوق الموقع الذي بناه قسطنطين، وبمرور الزمن سيطر الباباوات على مساحة وسط إيطاليا سميّت الدولة البابوية، إلا أنّه بحلول عام 1870م فقد البابا "بيوس التاسع" السلطة عليها، بعد سلسلة من الهزائم السياسية، فما كان من الباباوات إلا أن اعتكفوا داخل الفاتيكان، ورفضوا التعامل مع الحكومة الإيطالية، وفي الأخير تمت معاهدة "لاتيران" عام 1929م يوم السابع من حزيران/ يونيو، تخلى فيها البابا عن المطالبة بدولة بابوبة، في حين وافقت الحكومة الإيطالية بعد عشر سنوات، أي عام 1939م، على إقامة دولة الفاتيكان المستقلة[6] .

منذ القرون الأولى للكنيسة تلقى الكرسي الرسولي بعض الممتلكات والأراضي عن طريق الهبة أو الإرث، شكلت النواة الأولى للدولة الفاتيكانية، ولصغر مساحتها يمكن لزائرها أن يدور حولها في حوالي 20 دقيقة فقط ومشيا على الأقدام، لها ثلاث أبواب: باب البرونز وباب قوس الأجراس، وباب القديسة آن، ويقع القصر البابوي لرئيس دولة الفاتيكان في ميدان القديس بطرس ذي أعمدة فخمة، وفي قلب الكنيسة الكبيرة تجد أحواض الماء المباركة أو المقدسة، وبخلاف جميع الدول في العالم فإنّ دولة الفاتيكان لا تعرف الجمارك، لكنها تملك جيشا وثكنات، وللفاتيكان أمن داخلي، فبعدما ألغى "بولس السادس" فكرة الجيش أوجد حرسا داخليا زيهم أزرق، مهمتهم حراسة البابا أثناء ترتيله في الصلاة، مع اتصالهم من خلال أجهزة حساسة بمراكز الشرطة[7].

أمّا عن موارد الفاتيكان فقبل القرن التاسع عشر لا يوجد معلومات حول موارده، ولكن الثابت في التاريخ أنّه من تاريخ 1871م قررت الحكومة الإيطالية منح الفاتيكان مبلغ سنوي قيمته ثلاث ملايين ليرة إيطالية من الذهب، وهذا المبلغ ظلّ الكرسي الرسولي يرفضه لخلاف على السلطة بينه وبين الحكومة الإيطالية حتى تمت المصالحة بينهما عام 1929م، فقبض الفاتيكان هذا المبلغ الضخم الذي بقي يتراكم على عاتق الحكومة الإيطالية، بالإضافة إلى أنّ الفاتيكان يتلقى مساهمات من شتى أرجاء العالم المسيحي الكاثوليكي عبر العالم، كما أنّ للفاتيكان ممتلكات وعقارات واستثمارات عبر دول العالم تؤمن مداخيل الفاتيكان[8] .

ومنذ الاعتراف بمعاهدة لاتيران خضعت حاضرة الفاتيكان لقانون دولة عمّم في نشرة رسمية تدعى أعمال الكرسي الرسولي، وتبعا لأحكام هذا القانون يمارس البابا السلطة التشريعية والتنفيذية بواسطة لجنة من الكرادلة يعينهم لخمس سنوات، ويعهد بالسلطة التنفيذية إلى أمين سر عام مع مفوض خاص ومستشار دولة[9]، وبهذا أصبحت الفاتيكان دولة قائمة بذاتها لها علاقاتها الدبلوماسية مع مختلف دول العالم، إلا أنها

ذات طابع خاص، كونها تمثل قلب العالم المسيحي وعلى رأس الكنائس الكاثوليكية، أكبر الطوائف في الديانة المسيحية، وأي علاقة تربط دولة بالفاتيكان تحمل دلالة خاصة، لاعتبارات دينية وثقافية .

2.2. المكانة السياسية والدينية للفاتيكان.

الفاتيكان مقر سكن الحبر الكاثوليكي قداسة البابا_ الحبر الأعظم _ هو أسقف روما من مقره ، ويمثل الرأس المنظور للكنيسة التي أسسها المسيح، وقادها رسله على رأسهم بطرس وبولس منذ العصور الأولى، كمرجع للعقيدة والمحافظة على وحدة الكنائس المسيحية، والفاتيكان التي تعد دويلة صغيرة مستقلة داخل مدينة روما عاصمة إيطاليا، وقائدة للكنائس الكاثوليكية، التي تعتبر نفسها الوريث الشرعي الوحيد لدين المسيح، عبر سلسلة أسقفية متواصلة تبدأ من بطرس الرسول تلميذ ووصي وخليفة السيد المسيح وتستمر عبر خلفائه من الآباء (البابوات) بلا انقطاع إلى يومنا هذا للتفويض والسلطان الذين منحهما يسوع المسيح للرسل الاثني عشر[10] .

يعد الفاتكان أهم مؤسسة مسيحية كاثوليكية، تخضع لسلطته جميع الكنائس الكاثوليكية عبر العالم، تنقسم إلى كنيستين، الكنيسة اللاتينية والكنائس الشرقية، وهما تنقسمان إلى كنائس محلية عديدة، ويُعهد للأساقفة أمر الاهتمام والعناية بها، والبابا هو الرئيس لمجمع الأساقفة، ويربطه تواصل وثيق بهم في أنحاء العالم، وله أن يدعوهم إلى اجتماع المجلس المسكوني برئاسته، ليبحث معهم أمور وشؤون الخاصة بحياة الكنيسة عموما، وقد عقد خلال القرن العشرين واحد وعشرون اجتماعا للمجلس المسكوني، أحدثها اجتماع المجلس الفاتيكاني الثاني[11].

وعبر تاريخه الطويل لطالما كان العداء والصراع موقفه من الإسلام والمسلمين، لكن ومع منتصف القرن العشرين، وبعد تغير المعطيات العالمية الخادمة لمصالح الكنيسة الكاثوليكية على أراضي الدول العربية والإسلامية، كان لا بدّ للكنيسة الكاثوليكية أن تجد سبيلا للوصول مرة أخرى إلى قلب العالم الإسلامي، وقد كان المجمع الفاتيكاني الثاني نقطة تحول عقدية ولاهوتية وفكرية داخل الكنيسة الكاثوليكية، فنجد أنّ 57 بلدا المنتمية إلى منظمة المؤتمر الإسلامي، بالإضافة إلى 22 بلد عضو في جامعة الدول العربي، نجد 47 دولة منها أقامت علاقات دبلوماسية مع الفاتيكان، فالعلاقة بين العالم الإسلامي والفاتيكان ليست وليدة العصر الحديث، بل لها تاريخ سابق، لكنها كانت علاقات مواجهة وصراعات أكثر منها علاقات تعايش سلمي وهدوء، ولكن مع بداية الستينات، عرفت هذه العلاقات بفضل مجمع الفاتيكاني الثاني عهدا جديدا، تميّز بانتصار الحوار والاحترام المتبادل.

يتمتع الفاتيكان بقيمة رمزية استثنائية في العالم المسيحي، لها مطلق السيادة القانونية، التي تحرر البابا من أي تدخلات خارجية، وتحقق له الاستقلالية في ممارسة سلطاته العليا، فتضم الهيئة الدبلوماسية للفاتيكان نحو 90 سفيرا بالإضافة إلى وظائف أخرى لسفراء الفاتيكان عبر الدول، وهم يمثلون الفاتيكان أيضا لدى الكنائس الكاثوليكية الرومانية لهذه البلاد أيضا[12]، ولا يقتصر العمل لدى الكرسي الرسولي خاصا بالدول والحكومات فقط، بل تعداه ليشمل المنظمات الدولية الكبرى مثل منظمة الأمم المتحدة في

نيويورك والأونيسكو في باريس، ومنظمة العمل الدولية (O.I.T) ومنظمة الصحة العالمية (O.M.C) في جنيف، ومنظمة الأغذية والزراعة (F.A.O) في روما، والمجلس الأوربي في ستراسبورغ والمجموعات الأوربية في بروكسل، وقد تطور هذا الحضور العالمي للكرسي الرسولي بشكل متزايد، ويتميز قسم العلاقات الدولية داخل أمانة سر الدولة بنشاط يزداد تدريجيا وبسرعة يوما بعد يوم في مشاركات الكرسي الرسولي.

فالكرسي دائم الحضور بمبعوثيه في الوكالة الدولية للطاقة النووية، وفي منظمة الأمم المتحدة للتطوير الصناعي في فيينا، وفي منظمة السياحة العالمية، وفي المؤسسة الدولية لتوحيد الحق الخاص، وهو عضو في اللجنة التنفيذية لبرنامج المفوضية العليا للاجئين التابعة للأمم المتحدة، وفي اللجنة المشتركة للحكومات الخاصة بالهجرات الأوربية، والكرسي الرسولي موقع على الاتفاقيات الدولية في جنيف منها مؤتمرات الصليب الأحمر وهو يهتم بتقديمات منظمة الأمم المتحدة للإغاثة والعمل، وغيرها من المنظمات والمؤسسات الحكومية وغير الحكومية التي للكرسي الرسولي دور فيها[13]، مما ساهم في إكساب الفاتيكان مكانة كبيرة في المحافل الدولية وإيصال آرائه وصوته إلى مختلف أرجاء العالم.

تعد البابوية من أقوى المؤسسات الدينية في العالم الغربي إجمالا، لدرجة أنها في بعض فترات التاريخ ألحقت السلطة السياسية بالسلطة الروحية وذلك في العصور الوسطى، إلا أنها ابتداء من القرن الرابع عشر تناقص سلطانها السياسي بشكل كبير، وانحسر في السلطة الروحية فقط، بسبب ممارسات الكنيسة على رعاياها.

إلاّ أنّ العلاقات المسيحية الإسلامية عرفت في مجملها تأرجحا بين الاستقرار والتصادم، رغم أنّ عيش المسيحيين في كنف الخلافة الإسلامية على اختلاف عصورها تميز بكرم المسلمين معهم، كما حفظت لهم فيها حقوقهم الرعوية، وتركتهم وما يعتقدون وما يعبدون دون أية مضايقة، بل إن الرسول عليه السلام قد جعل أذيتهم جرماً، وأوجب الدفاع عنهم وأمر بحسن معاملتهم: "ألا من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته أو أخذ شيئا بغير طيب نفس منه فأنا حجيجه يوم القيامة"، وبالرغم من أن الإسلام يدعو النصارى واليهود لاعتناق الإسلام باعتباره ناسخاً للأديان السابقة إلا أنّه لا يجبر أحداً على اعتناقه، بل يدعوهم لذلك بالحكمة والموعظة الحسنة، فلقد شهد التاريخ دخول العديد من أهل الكتاب في الإسلام دون إكراه أو إجبار حتى إن الذين بقوا على دينهم قاتلوا الصليبيين جنباً إلى جنب المسلمين، إدراكاً منهم لتسخير حكام أوروبا للكنيسة لصالح أطماعهم الاستعمارية وحفاظاً منهم على المجتمع الإسلامي الذي عاشوا فيه بكرامة واحترام.

لقد كانت المؤسسة الكنسية الغربية طوال العصور الغابرة أداة تُسخر لصالح السياسيين على اختلاف مسمياتهم، فكانت في العصور الوسطى أداة للإقطاعيين تشرع إجرامهم بحق الناس حتى عدّها البعض مكوناً من مكونات النظام الإقطاعي، لتلعب الكنيسة نفس الدور فيما بعد لصالح الرأسماليين والسياسيين الفاسدين في كافة الدول الغربية وتروج لمشاريعهم الاستعمارية، ولهذا فعادة ما يتخذ الدور السياسي للفاتيكان منحى سلبيا في الدول العربية والإسلامية، وذلك بسبب عدم فهم الآخر وعدم تحقيق مبدأ

الحوار بين الأديان بالشكل الأمثل، يضاف إلى ذلك أن دعم أوروبا المسيحية لنشوء وقيام دولة إسرائيل عام 1948 خلف آثارا بالغة السوء على النظرة الإسلامية للفاتيكان ودوره السياسي في العالم.

عندما انتخب "يوحنا بولس الثاني" (1921- 2005م) بابا للفاتيكان وحبر أعظم للكنيسة الكاثوليكية أكبر الكنائس المسيحية، كان نشاط الفاتيكان خلال هذه الفترة على عدّة جبهات، منها الانخراط النشط مع أمريكا والعرب، فلقد زار البابا وطنه بولندا عام 1979م، وحرّك نقابة العمال ضدّ الشيوعية وحكومتها، وعمل على إيقاظ القومية السلافية في أوربا الشرقية، وحرّك المنشقين في تشيكوسلوفاكيا ضدّ الشيوعية خلال الحرب الباردة الغربية، كما أنّه وفي نفس المجال وتدخل الفاتيكان في قيادة الجبهات الدينية في الحرب الباردة.

أمّا مع الطرف اليهودي فإنّ الفاتيكان في عقوده الأخيرة وبعد اتحاده وتحالفه مع المسيحية البروتستانتية، ومع الامبريالية الأمريكية، ولما كان لليهود في الحرب الباردة ضدّ الشيوعية فقد قام البابا "يوحنا بولس الثاني" بمناسبة سنة الفداء في 20-04-1984م، بإعلان أنّ القدس هي شعار الوطن اليهودي بقوله:" منذ عهد داوود الذي جعل أورشليم عاصمة مملكة، ومن بعده ابنه سليمان الذي أقام الهيكل، ظلت أورشليم موضع الحب العميق في وجدان اليهود، الذين لم ينسوا ذكرها على مرّ الأيام، وظلت قلوبهم عالقة بها كل يوم وهم يرون المدينة شعار لوطنهم"[14]

وكان البابا يوحنا بولس الثاني أول بابا كاثوليكي يزور كنيسا يهوديا، وهو كنيس روما القديم سنة 1986م، وفي عام 1993م أقام الفاتيكان العلاقات الدبلوماسية مع الكيان الصهيوني، وجاء في مقدمة المعاهدة التي عقدت في 31-12-1993م بين الفاتيكان وإسرائيل النص على العلاقات الفريدة بين الكاثوليك والشعب اليهودي، بما يتضمن هذا النّص من التزام ديني حتى الكاثوليك العرب بهذه العلاقة الفريدة مع الكيان اليهودي الصهيوني[15] .

يمكننا أن نتساءل أمام ما نقرأه وما نراه اليوم في العلاقة بين العالم المسيحي الكاثوليكي بقيادة الفاتيكان، كيف تحول الحقد المسيحي على الجنس اليهودي، إلى هذه المحبة والعلاقات الجيدة؟ وكيف نسي اليهود ما فعله بهم المسيحيون لقرون طويلة في داخل أسوار الجيتو وخارجه، وكذا أثناء الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش؟ لماذا تحول الحقد اليهودي على المسيحيين إلى العرب والمسلمين، والمسلمون هم من كان لهم مواقف إيجابية عبر التاريخ اليهودي ؟

وإضافة إلى هذا عززت هذه العلاقات بزيارة البابا لإسرائيل عام 2000م، وقد قدّم اعتذارا وندما غير مسبوقين من الحبر الأعظم المعصوم ! لليهود على ما ارتكبته الكاثوليكية في حقهم بسبب المعاداة المسيحية للسامية، وكتب بذلك اعتذارا وندما في مذكرة ووضعها في شق حائط الغربي (حائط المبكى لدى اليهود) بالقدس الشريف، دعا فيها إلى الصّفح عن الكنيسة الكاثوليكية للخطايا التي ارتكبتها في حق اليهود!

كما قدّم البابا اعتذارا للبروتستانت بسبب دور الكنيسة الكاثوليكية في مرحلة ما بعد الإصلاح الديني – الحروب الدينية الكاثوليكية – البروتستانتية (1562- 1629م)، وفي سنة 2004 قدّمت الكنيسة الكاثوليكية اعتذارا للصينيين عن حالات الظلم التي ارتكبتها الكنيسة في الصين، كما قدّمت الكنيسة الكاثوليكية اعتذارا شمل العالم كله على غطرسة الكنيسة، كما في مسألة إعدام جاليليو (1564- 1642م) واضطهاد الفلاسفة والعلماء بواسطة محاكم التفتيش.

جملة الاعتذارات التي قدمها الفاتيكان لم تشمل المسلمين ومعهم الأفارقة والهنود الحمر، هؤلاء لم يقدم لهم البابا أي اعتذار لا على الحروب الصليبية التي دامت حملاتها قرنين من الزمن (489- 690 هـ) (1096-1291م)، ولا عن تحالف الكنيسة مع الامبريالية الغربية في استعمار للبلاد العربية والإسلامية، ودورها في تنصير المسلمين وفي نهب وتدمير افريقيا عبر خمسة قرون، وفي الإبادة لسكان وحضارات أمريكا وأستراليا ونيوزلاندا ![16]

فرغم أنّ الفاتيكان اتخذّ من الحوار قاعدة جديدة للعلاقات بينه وبين العالم الإسلامي بعيدا عن النظرة المصلحية والعدائية تجاه المسلمين، إلا أنّ أمهات المسائل والقضايا الجوهرية التي تربط العالمين الغربي المسيحي والشرق الإسلامي لم يتخلص منها.

3. المجمع الفاتيكاني الثاني ومبادرة الحوار.

1.3. البيان الختامي لمجمع الفاتيكان الثاني ودعوة الحوار.

لم يكن اهتمام الكنيسة الكاثوليكية بالعالم الإسلامي وليد القرن التاسع عشر أو القرن العشرين، بل كانت له جذوره الضاربة في التاريخ من منطلق العلاقات التي تصادمت مع الإسلام منذ نشأته الأولى، وصولا إلى الحروب التي كانت بين الطرفين، اختتمتها الحروب الصليبية، وتليها حروب الاسترجاع، إلا أنّ الفترة الاستعمارية كانت الأبرز، حيث رافقت الكنيسة الكاثوليكية وباركت كل الحملات الاستعمارية واستغلتها لنشر المسيحية والوقوف في وجه الإسلام وعلى أرضه، إلا أنّ العصور التالية عرفت تغيرا في مخططات الكنيسة الكاثوليكية وانفتاحها وتعاملها مع العالم الإسلامي، وأخذت المراكز الفكرية والاستشراقية تدخل خط المواجهة مع الانفتاح الحداثي والعلمي في العالم المسيحي، وهنا نود التركيز على أهمها باعتبار أنّ فترة العلاقات الكاثوليكية الإسلامية ممتدة وطويلة، فنشير إلى أنّ بدأ اهتمام الكنيسة الكاثوليكية بالشرق الأدنى جاء في رسالة عالمية كان عنوانها "Petit Apostoli Sede in Suprema" عام 1848م نصح فيها البابا بيوس التاسع الكنائس الشرقية بتناسي الشقاقات القديمة والعمل من أجل الاتحاد، بينما أشارت رسالة البابا ليون (لاون) الثالث عشر عام 1894م، إلى ضرورة الدراسة المتعمقة والاهتمام الجاد بطقوس الكنيسة الشرقية، التي تشكل بالنسبة لمسيحي العالم كله قيمة لا تقدر، أمّا البابا "بينيدكت الخامس عشر" فقد أسس في عام 1917م "أمانة شؤون الكنيسة الشرقية" والمعهد البابوي للدراسات الشرقية في روما.

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين أنشأ المبشرون الكاثوليك مجموعة من المراكز العلمية في البلدان العربية: جامعة القديس يوسف الكاثوليكية في بيروت (الجزويتيون – اليسوعيون)، والمعهد الدومينيكاني للدراسات الشرقية في القاهرة، ومعهد دراسات "الآباء البيض" في تونس، وتعّد هذه المؤسسات الكاثوليكية مراكز علمية ضخمة للاستشراق فقط، ولكنها مفاصل رئيسية للحوار الإسلامي – المسيحي[17].

لم تجد كنيسة روما سبيلا للخروج من مأزق التأقلم مع الحداثة ومع الصورة المتزايدة لاستقلال الشعوب من قبضة الاستعمار، سوى التعجيل بعقد مجمع الفاتيكان الثاني (1962-1965) في محاولة لمواءمة رسالة الدين مع روح العصر والبحث عن مصالحة مع الزمن، بقصد الإمساك بمجريات الواقع الديني الذي بدأ ينفرط عقده وما عاد للبابا سلطان كاف عليه.

لأول مرة في تاريخ الكنيسة ناقش المجمع الفاتيكاني الثاني(1962- 1965م) على المستوى مذهبي – عقائدي مشكلة العلاقة بين الكنيسة والديانات غير المسيحية، وخصصت لهذه المسألة تصريح خاص ضمن البيان الختامي لمجمع الفاتيكاني الثاني، في "علاقة الكنيسة مع الديانات غير المسيحية"، وقد أولى المجمع اهتماما خاصا للإسلام، وللمرة الأولى ومنذ أربعة عشر قرنا من وجود المسيحية والإسلام يتحدث مجمع مسكوني كاثوليكي بصورة إيجابية عن المسلمين.

لم تكن مبادرة مجمع الفاتيكاني الثاني للحوار وليدة المجمع، بل حدثت الكثير من التطورات، كانت سببا في جذب المجمع نحو الإسلام، يأتي في مقدمتها زيارة البابا بولس السادس إلى منطقة الشرق الأدنى في كانون الثاني من سنة 1964م، إذ توجه في خطاباته، التي ألقاها في عمّان والقدس (بتحية أخوية إلى المسلمين)، وفي أيار من العام نفسه أعلن البابا بولس السادس عن إنشاء أمانة السر (سكرتارية) لشؤون الديانات غير المسيحية، وحدد مهمتها الأساسية في إقامة (حوار مخلص مع أولئك، الذين يؤمنون بالله ويعبدونه)، كما وجه البابا بولس السادس عام 1964م، رسالة جامعة ركزت على ضرورة الحوار مع كل المؤمنين، وذوي الإرادة الصالحة لإرساء علاقات جديدة بين الكنيسة والديانات الأخرى القائمة في العالم، وعلى ضرورة التقارب والحوار مع المسلمين بصفة خاصّة[18] .

يعتبر بيان "Nostra Aetate" أو الذي يسمى كذلك "علاقة الكنيسة بالديانات غير المسيحية" الذي أقر بتاريخ 28 أكتوبر 1965م[19]، ونشر يوم 5 نوفمبر 1965م، أهم بيان في مجال الحوار الإسلامي المسيحي بل هو يشكل منعطفا في تاريخ العلاقات الإسلامية المسيحية، وقد "صدر بعد تصحيحات وتعديلات كثيرة أثناء مناقشات أعمال الدورتين الثالثة والرابعة، وجرى التصويت عليه في الخامس عشر من تشرين الأول سنة 1965م، فوافق 222 أسقفا في حين عارضه 88 صوتا فقط"[20].

ويتألف البيان حول "علاقة الكنيسة بالديانات غير المسيحية" من خمسة أقسام، أولها المقدمة التي تشير إلى أنّ العصر الحاضر الذي يتحد فيه الجنس البشري اتحادا وثيقا، وتنمو فيه العلاقات المختلفة بين الشعوب، تنظر الكنيسة باهتمام بالغ إلى طبيعة علاقتها بالديانات غير المسيحية، انطلاقا من مهمتها القائمة

على مبدأ تعزيز الوحدة والمحبة بين الناس والأمم، وتبحث بعمق عما هو مشترك بين الناس وما يقودهم لمصير واحد.

وفي القسم الثاني يجري الحديث عن مختلف الديانات غير المسيحية، ومختلف أشكال التي حاول فيها الإنسان إدراك القوة الخفية الساهرة على مجرى الأمور وحوادث الحياة البشرية، وجاء التطرق إلى الديانات الهندوسية والبوذية وغيرها، وأنّ الكنيسة تنظر باحترام إلى تلك التعاليم والقواعد وتحث أبناءها على معرفة وتعزيز القيم الروحية والأدبية والاجتماعية والثقافية الموجودة لدى الديانات الأخرى، وخصّ القسم الثالث من البيان للديانة الإسلامية، وأمّا القسم الرابع فللديانة اليهودية. وأمّا القسم الأخير فخصه البيان بالحديث عن الأخوة الشاملة التي تجمع الإنسانية دون فروق دينية أو عرقية.

أمّا النص المركزي في البيان والذي نحن بصدد تحليل مضامينه فهو النص النهائي للمجمع بشأن الديانة الإسلامية، المؤرخ في 28 أكتوبر 1965م[21]، والذي جاء فيه ما يلي: "وتنظر الكنيسة بعين الاعتبار أيضاً إلى المسلمين الذين يعبدون الإله الواحد الحي القيوم الرحيم الضابط الكل خالق السماء والأرض المكلم البشر، ويجتهدون في أن يخضعوا بكليتهم حتى لأوامر الله الخفية، كما يخضع له إبراهيم الذي يُسند إليه بطيبة خاطر الإيمان الإسلامي، وإنهم يجلون يسوع كنبي وأن لم يعترفوا به كاله، ويكرمون مريم أمه العذراء كما أنهم يدعونها أحياناً بتقوى. علاوة على ذلك أنهم يتنظرون يوم الدين عندما يثيب الله كل البشر القائمين من الموت؛ ويعتبرون أيضاً الحياة الأخلاقية ويؤدون العبادة لله لاسيما بالصلاة والزكاة والصوم. وإذا كانت قد نشأت، على مر القرون، منازعات وعداوات كثيرة بين المسيحيين والمسلمين، فالمجمع المقدس يحض الجميع على أن يتناسوا الماضي وينصرفوا بالخلاص إلى التفاهم المتبادل، ويصونوا ويعززوا معاً العدالة الاجتماعية والخيور الأخلاقية والسلام والحرية لفائدة جميع الناس"[22] .

يمثل هذا البيان الرسمي الذي ختم به المجمع الفاتيكاني الثاني، لقاءاته وندواته، نقطة انطلاق مبادرة الحوار الإسلامي – المسيحي التي أطلقتها الكنيسة الكاثوليكية، وعلى رأسها الرئاسة البابوية في الفاتيكان، ومن خلاله يتبدى لنا تغيّر نظرة الكنيسة الكاثوليكية إلى الإسلام والمسلمين، ودعوتها لفتح مجال الحوار والنقاش، ولما لا التعاون المتبادل، وتماشيا مع الرؤية الكاثوليكية للحوار التي تفرق بين شكلين ، الأول نظري (العقائدي والمذهبي) والثاني الشكل العملي وهو (التعاون في المجال الاجتماعي)[23].

إنّ الدعوة التي جاء بها البيان الختامي للمجمع الفاتيكاني الثاني نستطيع أن نسجل عليها عديد الملاحظات، حول العبارات التي خاطب بها المجمع المسلمين، فنلاحظ أنّ أول ما ابتدأ به البيان يترجم أنّ موقف الكنيسة من المسلمين لم يتغيّر في جوهره، وتظهر فيه الروح الاستعلائية "إنّ الكنيسة تنظر بعين الاعتبار"، وكأن موقفها الجديد هو تناول للكنيسة عن بعض مكانتها، ثمّ أراد اللاهوتيون الكاثوليك إبراز أساس جديد للعلاقة بالمسلمين، أو تبريرها ربما لمن كان لهم موقف رافض للحوار الإسلامي – المسيحي، وهي العبارة التي جاء فيها: "الذين يعبدون الإله الواحد الحي القيوم الرحيم الضابط الكل خالق السماء والأرض المكلم البشر. ويجتهدون في أن يخضعوا بكليتهم حتى لأوامر الله الخفية، كما يخضع له إبراهيم الذي يُسند إليه بطيبة خاطر الإيمان الإسلامي" ويظهر فيها تغيّر جذري في الموقف اللاهوتي

والعقدي للكنيسة الكاثوليكية تجاه المسلمين، والاعتراف بديانتهم، فأرادوا أن تكون عقيدة التوحيد أساسا جديدا للاعتراف بالمسلمين، ومدّ العلاقات معهم، كما أرجعوا رسالة الإسلام إل أصلها الأول وهي كونها واحدة من الديانات الإبراهيمية، وتجتمع في هذا مع الديانتين المسيحية واليهودية، وإن كان البيان لم يتعرض لنبوة النبي محمد – صلى الله عليه وسلم- مما يدل على عدم تغير موقف الكنيسة الكاثوليكية منها، وعدم اعترافها بنبوته عليه الصلاة والسلام.

كما كان انتقاء اللاهوتيين لأسماء الله الحسنى في البيان جد دقيق، ويتفق مع التصورات المسيحية عن الرب، وتملك في الوقت ذاته ممثلا ومشابها لها في القرآن الكريم، فاستعمل في المشروع النهائي للتصريح، مفهوم "الحي القيوم" واستبعدت مصطلحات "شخص الرب" أو "المتجسد" لأنه يضمن في اللغة العربية معنا من "التجسيم" وهو ما يتعارض مع الجوهر الإلهي وفق العقيدة الإسلامية [24].

كما تظهر عديد العبارات العقدية المغالطة التي لا تعبّر عن الإسلام بشكل صحيح، وأولها عقيدة المسلمين تجاه عيسى (عليه السلام)، في "وإنهم يجلون يسوع كنبي وأن لم يعترفوا به كاله"، كما تبدو فيه بعض المغالطات في بيان عقيدة المسلمين في مريم العذراء، أم النبي عيسى (عليه السلام)، وذلك في عبارة " ويكرمون مريم أمه العذراء كما أنهم يدعونها أحياناً بتقوى" وهو أمر لم يعرفه المسلمون في تاريخهم أن يدعوا باسم مريم (عليها السلام)، لكنهم يعتقدون فيها إكرام الله تعالى لها واصطفائها كأم أحد الأنبياء عليهم السلام.

كما أنّ القراءة التحليلية للبيان الختامي للمجمع تبيّن مدى حرصه على تأكيد حقيقة أنّ المسلمين " يعتبرون أيضا الحياة الأخلاقية، التي تشكل الأساس الاجتماعي (الأسرى والفردي) لسلوك المسلمين، وهو موقف مناقض لما كان يردده أساقفة المسيحية عن ما يسمونه "الانحلال الخلقي للمسلمين" تذرعا بمسألة إباحة تعدد الزوجات، و إمكانية الطلاق في الشريعة الإسلامية.

أمّا بالنسبة للعبادات في الإسلام فقد اكتفى المجمع بذكر العبادات، الأكثر أهمية في توجيه المسلم ضمن ثلاثة محاور الأولى "الصلاة" والثانية "الزكاة والصدقة"، وكذا "الصوم" ولم يذكر البيان باقي أركان الإسلام، ولكنها ذكرت هذه لتماثلها مع العبادات المسيحية، فنرى أن البيان الختامي للمجمع الفاتيكاني الثاني يقدم بشكل عام وصفا إيجابيا ومتحفظ لمجموعة من المبادئ الأكثر أهمية في العقيدة الإسلامية [25].

ليعرج البيان عن التاريخ غير السلمي الذي كان بين المسلمين والمسيحيين عبر التاريخ، ويعترف به، دون أن يذكر أسباب الخلاف، ولا الطرف الذي كان معاديا للآخر، ولا بالاعتراف بجميع الحروب التي قادها العالم المسيحي ضدّ الإسلام ومنذ ظهوره، ولا أن يحمل الكنيسة الكاثوليكية المسؤولية لعداوتها وقيادتها للحرب ضدّ الإسلام، وما الحروب الصليبية والاستعمارية ببعيدة عن الذاكرة التاريخية الجماعية، ولهذا ذهب البيان إلى "فالمجمع المقدس يحض الجميع على أن يتناسوا الماضي وينصرفوا بالخلاص إلى التفاهم المتبادل، ويصونوا ويعززوا معاً العدالة الاجتماعية والقيم الأخلاقية والسلام والحرية لفائدة جميع الناس" فكانت الدعوة لتجاوز كل الخلافات والصراعات، ولتبدأ علاقات جديدة لها أسس اجتماعية وقضايا مشتركة بين الطرفين، وهي رؤية قوبلت بنوع من الارتياح والترحيب، سواء من الطرف المسيحي

الكاثوليكي، أو من الجانب الإسلامي. إلا أنّ الانطلاق في الجانب التطبيقي، لم يكن بسيطا ولا متاحا، بل كان أكثر صعوبة وتعقيد.

2.3. أسس الحوار الإسلامي – المسيحي في البيان الختامي للمجمع:

كانت دعوة الفاتيكان للحوار، تشمل الطرفين المسيحي والإسلامي، وقد أعقب البيان الختامي لمجمع الفاتيكاني الثاني عديد البيانات والرسائل، فنجد الباحث اللاهوتي "لويس كاردت" نشر بيانا عام 1966م، تابعا للبيان الصادر لمجمع الفاتيكاني الثاني، وقد تضمن دعوة طرفي الحوار المسلمين والمسيحيين، إلى الصبر والأناة لتغيير سوء التفاهم، وتبديل الأفكار الزائفة التي حملها كل طرف تجاه الطرف الآخر، كما جاء في البيان، أنّ نظرة المسيحي تجاه الحوار هي نظرة تنطلق من واجبه الديني تجاه الناس، وهو يحاول جعل الطرف المسلم صديقا له من جهة، ولبيان صحة اعتقاده في التوحيد الحقيقي، وهنا يتوجب على المسيحي أن يوضح عقيدته وإيمانه بشكل يفهمه المسلم، وهنا يضع جملة من المفاهيم التي يرى فيها المسيحيون أنها مشتركة بين المسلمين والمسيحيين، مثل: الثقة بالله والصبر على المصائب والشدائد، والتخلق بالأخلاق الحميدة كالصدق وغيره[26].

كما أصدر الفاتكان عام 1969م بيان تحت عنوان: "الخطوط العريضة للحوار بين المسلمين والمسيحيين"، ويتضمن البيان، أنه يجب على المسيحيين في حوارهم مع المسلمين توضيح إيمانهم من خلال القضايا الروحية والطقوس التعبدية، بالإضافة إلى قضايا أخرى عصرية، تتعلق بالإنسان والتقنيات ومختلف جوانب الحياة.

وقد تضمن البيان أيضا جملة من المواقف التي يجب على المسيحي أن يتمسك بها خلال حواره مع المسلم، من بينها، ضرورة التسليم بوجود الطرف المسلم ومعتقداته، وألّا يكون الحوار هدفه تحويل الطرف الآخر عن دينه، وإلا سيكون الحوار في هذه مستحيلا، ولها فقد دعا إلى ضرورة تجنب التعرض للمسائل الدينية والعقدية، كما يجب أن يقبل كل طرف الطرف الآخر كما هو، وعلى حقيقة دينه، وينظر بعين الاحترام لعقيدة الطرف الآخر، كما شدد الفاتيكان على ضرورة تمسك الطرف المسيحي بإيمانه الخالص أثناء مجريات الحوار، فالمطلوب أن يلتقي المسيحي مع المسلم، وهو بكامل حياته الروحية والاعتقادية، وأن لا يتنازل المسيحي عن شيء من معتقداته[27].

ومن بين الأسس أيضا التي رسمها الفاتيكان في حواره مع المسلمين أنها اتخذت شكلين من أشكال الحوار، الشكل الأول وهو الشكل النظري، والذي يتمثل في الحوار العقدي، وأمّا الشكل العملي فشمل التعاون في المجال الاجتماعي، فقد شمل بيان الفاتيكان التأسيسي لفتح الحوار الإسلامي المسيحي، ما رأته الكنيسة الكاثوليكية موقفا إيجابيا من المسلمين، والدعوة إل نسيان خلافا الماضي.

بعد إطلاق مبادرة الفاتكان للحوار المسيحي – الإسلامي، اتخذت العديد من الإجراءات من بينها، الهيئة المركزية الرسمية للكنيسة المكلفة بإجراء الحوار مع المسلمين، أصبحت أمانة السر (أي السكرتارية) لشؤون الديانات غير المسيحية، واحتوت هذه الأخيرة ثلاث أقسام: الشؤون الإسلامية، الشؤون البوذية،

شؤون الديانات الإفريقية التقليدية، وفي عام 1974م، تحول قسم الشؤون الإسلامية إلى لجنة لها رئيس، ومستشارين يصل عددهم أحد عشرا عضوا، ينتخبون لمدة خمس سنوات.

يتمثل نشاط هذه اللجنة في: طبع ونشر الأدبيات المتعلقة بمسائل الحوار الديني، تنظيم لقاءات تشاورية عالمية، ومؤتمرات وندوات فكرية بين ممثلي العقائد المختلفة، وإقامة حلقات بحث منتظمة ومحاضرات في الفاتيكان، ويدعى إليها بصفة خاصة علماء مسلمون بارزون، وإصدار العديد من المجلات والكتب التي تعنى بالحوار المسيحي – الإسلامي، وعلى رأسها المجلة السنوية "**Islamochristiano**" "إسلام ومسيحية" التي تنشر أبحاث ودراسات جادّة في حقل العلوم الإسلامية، وتنظيم العديد من اللقاءات والمؤتمرات، التي أقيمت في العديد من البلدان برعاية الفاتيكان، والكنيسة الكاثوليكية[28] .

كما أنشئ مجلس حبري للحوار بين الأديان، على يد البابا بولس السادس في 19 ماي 1964م، بمناسبة عيد العنصرة، ومن مهامه تسهيل الاتصالات بالأشخاص والفئات غير المسيحية، وبالذين عندهم شعور ديني، ويسعى إلى أن يجري الحوار بطريقة لائقة بمعرفة واحترام متبادل لكي يرفع عبر عمل مشترك من مستوى كرامة الإنسان وقيمه الروحية والأخلاقية.

وفي 22 أكتوبر 1974م تشكلت لجنة خاصة مهمتها تنشيط العلاقات مع المسلمين من وجهة نظر دينية، والمجلس قائم على نشر مجلته التي تحوي مقالات باللغتين الفرنسية والانجليزية تعنى بالحوار بين الأديان وتوجيهه ونشر أدلة للحوار مع مختلف الأديان من بينها الإسلام[29]، وبهذا اختلفت نشاطات الفاتيكان الحوارية مع المسلمين، بين الزيارات المتبادلة وعقد المؤتمرات واللقاءات بين الطرفين، اختصت في مناقشة وطرح عديد القضايا المشتركة، وتنوع أيضا نشاط الحوار في البيانات والدوريات والدراسات المختلفة التي حاول تعريف بين الطرفين، وتقريب وجهات النظر أكثر.

4 . المواقف المسيحية والإسلامية من مبادرة الحوار.

1.4. المواقف المسيحية من مبادرة المجمع الحوارية:

لوحظ انقسام الآراء حول الحوار داخل الكنيسة الكاثوليكية، فبرزت ثلاث توجهات مختلفة:

– التوجه الأول: كان مرحبا بفكرة الحوار وقبل بدعمها وتطويرها، انطلاقا مما سنّه المجمع الفاتيكاني الثاني، من قرارات ووثائق، ورسائل بابوية، انطلاقا من اعترافهم بالصلة الروحية التي تجمع الديانتين، وعلى رأسها التوحيد، الذي حتما سيؤدي إلى التفاهم والتعاون، لنشر العدالة الاجتماعية والسلام.

– التوجه الثاني: فهم الذين لا يمانعون فكرة الحوار، لكن يشترطون أن تكون قضايا الحوار في المجال الدنيوي البحت، دون المسائل العقدية والدينية، وقد مثّل هذا التيار في رسالة أساقفة شمال إفريقيا جاءت تحت عنوان" مسيحيو إفريقيا: معنى لقاءاتنا" عام 1979، وانطلقوا فيها من الأقليات المسيحية في بلدان شمال إفريقيا، ولكن دعوتهم للحوار مؤسسة على مبدأ لاهوتي، انطلاقا من أن " نعمة الخلاص" تشمل كل إنسان في هذا العالم.

- التوجه الثالث: فيتجلى من خلال رسالة الأسقف اللبناني إلى الكاردينال بينيدولي، الذي كان يترأس اللجنة الخاصّة بشؤون الديانات غير المسيحية (1977م)، يؤكد فيها أن الشكل الوحيد المقبول لدى المسلمين، فيما يخص النسق الاجتماعي – السياسي هو " الأمة" أي الجماعة الإسلامية الثيوقراطية، التي تخضع المسلمين (الأغلبية) في مرتبة الحامي والراعي لديانات الأقليات الأخرى، وعلى هذا الأساس فإنه في حدود العالم الإسلامي لا يمكن الحديث عن أية مساواة، بما فيها الحقوق المدنية بين المسلمين وأتباع الديانات الأخرى، وهذا الواقع بحسبه يحول دون الحوار المفيد بين الديانتين، ولكن هذا التيار ليس له تأثير كبير على الكنيسة الكاثوليكية المعاصرة[30] ، كما تجسد من خلال شخصيات بابوية حاقدة على الإسلام والمسلمين التي رفضت الحوار خاصة إذا ارتبط بالقضايا العقدية.

2.4. المواقف الإسلامية من مبادرة المجمع الحوارية:

انقسمت المواقف الاسلامية من المبادرة التي أطلقها الفاتيكان، للحوار مع المسلمين من خلال البيان الختامي للمجمع الفاتيكاني الثاني (1962-1965م)، بين مؤيد ومعارض للحوار مع المسيحيين:

أولا: الموقف المؤيد للحوار الإسلامي – المسيحي :

وهو أقوى الاتجاهات لأنه يعتبر امتدادا للمنهج القرآني، الذي رسم قواعد تعامل المسلمين مع غيرهم المخالفين لهم في الدين، في دعوة القرآن الكريم للتعارف واحترام الاختلاف والحوار من أجل الدعوة إل الإسلام، وإيجاد سبل للتعايش والتسامح، فكان هذا منطلقا قرآنيا للمسلمين في علاقتهم بغير المسلمين منذ ظهور الإسلام، وإن كانت العلاقات الإسلامية المسيحية عرفت مراحل عديد من الصراع والصدام، ولكن هذا راجع لمعاداة الكنيسة المسيحية للإسلام ومحاربته منذ ظهوره، ومع التوجه الجديد الذي خصّ الكنيسة الكاثوليكية في الدعوة لبداية مرحلة جديدة من العلاقات بين الطرفين، ودعوتها للحوار، نجد أنّ الطرف الإسلامي كان له موقف مؤيد للمضي في هذه المرحلة الجديدة وطي صفحة تاريخ طويل من الصدام، ومن بين أهم المؤسسات الإسلامية التي أيدت الحوار الإسلامي – المسيحي نذكر من بينها الأزهر الشريف والذي وقد تجسّد موقف مؤسسة الأزهر من خلال مشايخ الأزهر وعلمائه وآرائهم الإيجابية حول البيان التي اختتمت به نقاشات المجمع الفاتيكاني الثاني، افتتحت هذه العلاقة بتبادل الزيارات بين الطرفين، حيث قام وفد من الأزهر بزيارة رسمية للفاتيكان في ديسمبر 1970م، وحلّ ضيفا على رئيس أمانة السّر لغير المسيحيين، وعبرت عما عند الطرفين من اقتناع بأنّ التعايش الودي بين المسلمين والمسيحيين هو واقع مهم، وقد وقع الفريقين بلاغا مشتركا في نهاية الاجتماعات التي تمت طيلة فترة إقامة الوفد الإسلامي[31]، وقد كان اختيار الأمانة لوفد إسلامي من الأزهر بالذات لإيجاد التوازن بين الطريفين، والبحث عن هيئة رسمية تمثل المسلمين لمد قنوات الحوار والتواصل، ثمّ تلاه استجابة الأزهر وممثليه لدعوات الفاتيكان الحوارية، ومشاركته في عديد اللقاءات والمؤتمرات.

كما أننا نجد منظمة التعاون الإسلامي- كما سبق وأن أشرنا- أنّه من بين 57 بلدا المنتمية إلى منظمة المؤتمر الإسلامي، بالإضافة إلى 22 بلد عضو في جامعة الدول العربي، أنّ 47 دولة منها أقامت علاقات دبلوماسية مع الفاتيكان، وقد شاركت المنظمة بممثليها في عديد اللقاءات والمؤتمرات الحوارية مع

الفاتيكان، والعديد من الشخصيات والمؤسسات والمراكز الإسلامية التي رحبت بمبادرة الفاتيكان استغلال الحوار للتعريف بالإسلام، وإعطاء الصورة الحقيقية للغرب المسيحي عن الإسلام والمسلمين، وإزالة تلك الصورة النمطية التي رسمتها المدارس الاستشراقية عن المسلمين وديانتهم، كما رأت فيه وسيلة للدفاع عن الأقليات المسلمة في الغرب المسيحي والدفاع عنها، وحمايتها، كما أنّ الحوار الوسيلة الفعالة لغرس مبادئ التعايش ومناقشة القضايا المشتركة التي تجمع الإنسانية.

ثانيا الموقف المعارض للحوار الإسلامي – المسيحي :

تتجسّد الرأي المعارض لمبادرة الحوار الإسلامي المسيحي التي أطلقها الفاتيكان، من البيان الختامي للمجمع الفاتيكاني الثاني ما بين عامي (1962- 1965م)، في معارضة بعض الشخصيات والمفكرين الإسلاميين للحوار، الذين حذروا منه ويرون فيه وسيلة خطيرة تستخدمها المسيحية الحالية ضدّ الإسلام والمسلمين، ومما نلاحظه أنه خلال التاريخ الطويل بين الجانب الإسلامي والمسيحي لم تكن هناك آراء معارضة للحوار مع المسيحيين لدى علماء المسلمين ومفكريهم بل كان جزءا أصيلا في الدعوة الإسلامية، وقد مارسه علماء الإسلام منذ القديم، إلاّ أنّ العصر الحالي أملى أوضاعا جديدة، بسبب ارتباطه ذهنيا وتاريخيا وواقعيا بالاستعمار الغربي، والديانة المسيحية الذين أصبحا وجهين لعملة واحدة، هذا من جهة ومن جهة أخرى ظهر تخوف كبير من تيار جديد ظهر في العصر الحديث وهو تيار يدعوا لوحدة الأديان، وبخاصة بين الإسلام والمسيحية واليهودية، التي ترى في الأديان أصلا واحدا، ووحدة أهدافها وعقائدها وشرائعها، ولا اختلاف إلا في المظاهر والطقوس والعبادات[32]، كما أنّ الحوار الإسلامي المسيحي مرفوض بسبب تدخل بعض المؤتمرات في مناقشة بعض القضايا في الشريعة الإسلامية والمطالبة بتغييرها.

فقد رأت الأستاذة زينب عبد العزيز، في المجمع الفاتيكاني الثاني أنّه مجمع هجومي في تاريخ المجامع، لأنّ المجامع السابقة كانت لمناقشة مسائل في الديانة المسيحية لإثباتها أو الدفاع عنها، إلا أنّ هذا المجمع كانت له قرارات لا سابق لها في التاريخ الكنسي، ومنها: توحيد كافة الكنائس الكاثوليكية تحت لواء كاثوليكية روما، واعتبار المسيحيين شعب الله المختار بدل اليهود حسب العهد الجديد الذي أقامه بولس، وجاء فيه تبرئة اليهود من دم المسيح، وهي تبرئة لها دواعي سياسية بحتة لتوحيد التحالف مع اليهود ضدّ الإسلام، واستتباب الوضع في فلسطين لتأكيد الأغراض الصهيونية، كما أوصى المجمع بانفتاح الكنيسة على العالم، والعمل على إيصال رسالة الإنجيل إلى جميع أنحاء العالم، وقد عدّت الأستاذة الحوار مع الديانات الأخرى ومن بينها الإسلام أنّ مقصودها دعوة للتنصير[33]، أمّا الأستاذ محمد عمارة فقد وصف الحوار الفاتيكاني مع المسلمين أنه عبارة عن جهود للكنيسة الكاثوليكية لجذب المسلمين في الحرب الباردة لحساب الغرب المتدين ضدّ الشيوعية الملحدة، ولذلك لم تقم لهذا الحوار مؤسسات أو مشاركات إلا في البلاد الإسلامية السائرة في فلك المعسكر الرأسمالي الغربي.

كما علّل "محمد عمارة" موقفه أن الفاتيكان ظلّ طوال سنوات الحوار وفي كل مؤتمراته على موقف ديني ثابت، لا يعترف بالإسلام دينا سماويا، ولا برسول الإسلام محمد –صلى الله عليه وسلم- نبيا ورسولا، بل ظلّ يصنف الإسلام ضمن الديانات الوضعية، وتكرر هذا الموقف في كل الملتقيات

والمؤتمرات الحوارية مع المسلمين[34]، ولهذا فقد كانت المخاوف من مبادرة الحوار التي طرحها الفاتيكان جلية في الجانب الإسلامي، ولها قراءات ما بين السطور لكل البيانات أو القرارات التي أصدرها الجانب المسيحي.

وقد اجتمعت أسباب معارضة الحوار الإسلامي المسيحي في مجملها حول أنّ الحوار وجه جديد للتنصير والتبشير بالمسيحية، وهو الرأي الذي أميل إليه، فالحوار ما هو وسيلة لإزالة العقبات النفسية والتاريخية التي يحملها المسلمون في ذاكرتهم تجاه الغرب المسيحي، فيسهل الغزو الثقافي والديني للعالم الإسلامي، كما أنّ عدم التكافؤ بين الأطراف المتحاورة، جعلت من الطرف الإسلامي الجانب الأضعف فيصبح الحوار عبارة عن إملاءات للغرب على المسلمين، وهو نوع من الاستعمار الثقافي والإرهاب الفكري، يلج بها الغرب المسيحي إلى حصون الإسلام العقائدية والثقافية والفكرية. كما أنني أرى أنه لا يمكن فتح مجال حوار حقيقي وفعال إلا عندما يصبح هناك تكافؤ بين أطراف هذا الحوار، ولا يكون حوار بين القوي والضعيف، والغالب والمغلوب، فيكون حوار إملاءات ووجه ثاني للاستغلال والاستعمار.

4. خاتمة

في ختام هذا البحث الذي تناولنا من خلاله البيان الختامي للمجمع الفاتيكاني الثاني (1962-1965م) ومبادرته الحوارية مع المسلمين، والتي جاءت في إطار انفتاح الكنيسة الكاثوليكية وعلى رأسها الفاتيكان على الديانات غير المسيحية، وفتح باب العلاقات معهم، بعد تغيرات سياسية وتاريخية عميقة لدى الجانبين، وقد تجسّد هذا في لقاءات حوارية بين الطرفين، حاولت تقريب وجهات النظر، وتغيير الصورة النمطية عن كل طرف نحو الآخر، ومحاولة جادة للتأصيل للحوار، خاصة في شكله المرتبط بالتعاون الاجتماعي، والتأكيد على القيم الإنسانية والروحية المشتركة بين الديانتين.

لقد نشأت دولة الفاتيكان على أسس دينية مسيحية وعلى الهضبة التي كانت قبرا للقديس بطرس أحد حواريي المسيح (عليه السلام)، فهو يتمتع بسلطة دينية وسياسية وقيادية وروحية في العالم المسيحي الكاثوليكي .

لقد كان البيان الختامي المرتبط بالديانة الإسلامية نقطة مفصلية في العلاقات الإسلامية – المسيحية، وتبنت تغيرات جذرية في آراء الكنيسة العقدية واللاهوتية أولها الاعتراف بالإسلام كديانة، وساهم في إرساء قاعدة لاهوتية للحوار الإسلامي – المسيحي، وكان البيان دعوة لتجاوز كل الخلافات والصراعات، ولتبدأ علاقات جديدة لها أسس اجتماعية وقضايا مشتركة بين الطرفين، وغرس الاحترام والتفاهم المتبادل بين الطرفين، وقضايا تختص بالتعاون الاجتماعي المشترك.

إنّ الكنيسة الكاثوليكية التي لطالما حملت لواء العداء للإسلام والمسلمين عبر التاريخ، ومنذ ظهور الإسلام، لم تأتي هذه مبادرتها الحوارية من فراغ، بل كانت مرتكزة على مصالح العالم الغربي المسيحي، خاصة بعد طي الفترة الاستعمارية التسلطية المسيحية على الشعوب الإسلامية، واستغلال خيراتها ونشر المسيحية، مما اضطر الجانب المسيحي إلى إيجاد حلول وفرص أخرى للتقرب وولوج

العالم الإسلامي، فكان الحوار الأداة الفاعلة التي تبنتها الكنيسة الغربية المسيحية الكاثوليكية.

تعد مبادرة الحوار الاسلامي – المسيحي الذي طرحه المجمع الفاتيكاني الثاني اليد الاستعمارية الجديدة التي مدّت للعالم الإسلامي من الغرب المسيحي.

5. قائمة المراجع:

- القصاص، محمد جميل "ترجمة"(1992م)، الفاتيكان وروما المسيحية، سوريا، دار طلاس ، ط1.
- بوبار، بول(1996م)، الفاتيكان - عاصمة الكثلكة في العالم-، لبنان، منشورات عويدات، ط1.
- جورافسكي، أليكسي، (2000م)، الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى آفاق الحوار والتفاهم، ترجمة: خلف محمد الجراد، دار الفكر المعاصر لبنان، دار الفكرط2.
- حداد، جولييت،(1995م)، "البيانات الإسلامية – المسيحية المشتركة" من 1954 إلى 1992م، لبنان، دار المشرق، ط1.
- الخوند، مسعود، (2004م)،الموسوعة التاريخية الجغرافية، ، لبنان، الشركات العالمية للموسوعات، جزء 13.
- داوود، محمد عيسى، (د ت) ، على عتبات الفاتيكان وعتبات أخرى، مصر ، دار البشير.
- رستم، سعد، (2005م)، الفرق والمذاهب المسيحية منذ ظهور الإسلام حتى اليوم، دمشق، دار الأوائل، ط 2 .
- عبد العزيز، زينب، (2001م)، الفاتيكان والإسلام، مصر، القدس للنشر والإعلان.
- العجك، بسام داوود، (1998م)، الحوار الاسلامي المسيحي -المبادئ -التاريخ- الموضوعات- الأهداف، دار قتيبة، ط1.
- عمارة، محمد، (2007م)، الإسلام والفاتيكان أهي حماقة أو عداء وتاريخ، مصر، مكتبة الشروق الدولية، ط1.
- اللحام، محمد سعيد، (2009م)، دول وأقاليم العالم (قارة أوربا 2)، لبنان، دار نوبلس، ط1، جزء 9.
- المجمع الفاتيكاني الثاني، (1992م)، دساتير قرارات بيانات، ترجمة: حنا الفاخوري، لبنان، معهد القديس بولس للفلسفة واللاهوت، منشورات المكتبة البولسية، ط1.
- رستم، سعد، (2005)، الفرق والمذاهب المسيحية منذ ظهور الإسلام حتى اليوم، دمشق، دار الأوائل، ط2.

6. الحواشي والإحالات:

1 – مسعود الخوند: الموسوعة التاريخية الجغرافية، الشركات العالمية للموسوعات، بيروت، لبنان، د ط، 2004م، جزء 13، ص 193.

2– محمد سعيد اللحام: دول وأقاليم العالم (قارة أوربا 2)، دار نوبلس، بيروت، لبنان، ط1، 2009م، جزء 9، ص 264.

3– محمد سعيد اللحام: دول وأقاليم العالم (قارة أوربا 2)، ص 13.

4– بول بوبار: الفاتيكان – عاصمة الكثلكة في العالم–، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، ط1، 1996م، ص13.

5– متى 16: 18.

6– محمد سعيد اللحام: دول وأقاليم العالم (قارة أوربا 2)، ص 46.

7– محمد عيسى داوود: على عتبات الفاتيكان وعتبات أخرى، دار البشير، القاهرة، مصر، د ط، د ت، ص 11– 12.

8– محمد عيسى داوود: على عتبات الفاتيكان وعتبات أخرى، ص 12– 14.

9– بول بوبال: الفاتيكان، ص 46.

10– سعد رستم: الفرق والمذاهب المسيحية منذ ظهور الإسلام حتى اليوم، دار الأوائل، دمشق ، 2005م،ط2، ص69.

11– الفاتيكان وروما المسيحية، ترجمة: محمد جميل القصاص، دار طلاس، دمشق، سوريا، ط1، 1992م، ص 13– 14.

12- محمد سعيد اللحام: دول وأقاليم العالم (قارة أوربا 2)، جزء 9، ص 266.
13- بو بوبار: الفاتيكان، ص 64- 67.
14- محمد عمارة: الإسلام والفاتيكان أهي حماقة أو عداء وتاريخ، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر، ط1، 2007م، ص9- 10.
15- محمد عمارة: الإسلام والفاتيكان أهي حماقة أو عداء وتاريخ، ص 10.
16- محمد عمارة: الإسلام والفاتيكان أهي حماقة أو عداء وتاريخ، ص 12- 13.
17- أليكسي جورافسكي: الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى آفاق الحوار والتفاهم، ترجمة: خلف محمد الجراد، دار الفكر المعاصر، بيروت لبنان، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط2، 2000م، ص 130- 131.
18- أليكسي جورافسكي: الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى آفاق الحوار والتفاهم، ص 135- 136.
19- المجمع الفاتيكاني الثاني: دساتير قرارات بيانات، ترجمة: حنا الفاخوري، معهد القديس بولس للفلسفة واللاهوت، حريصا، لبنان، منشورات المكتبة البولسية، بيروت، لبنان، ط1، 1992، ص 605.
20- أليكسي جورافسكي: الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى آفاق الحوار والتفاهم، ص 142.
21- جولييت حداد: "البيانات الإسلامية – المسيحية المشتركة" من 1954 إلى 1992م، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط1، 1995م، ص 29.
22- المجمع الفاتيكاني الثاني، دساتير، قرارات ، بيانات، ص 623.
23- أليكسي جورافسكي: الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى آفاق الحوار والتفاهم، ص 117، 140.
24- أليكسي جورافسكي: الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى آفاق الحوار والتفاهم، ص 123.
25- أليكسي جورافسكي: الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى آفاق الحوار والتفاهم، ص 128.
26- بسام داوود العجك: الحوار الإسلامي المسيحي – المبادئ –التاريخ- الموضوعات- الأهداف، دار قتيبة، ط1، 1998م، ص 380- 381.
27- بسام داوود العجك: الحوار الإسلامي المسيحي – المبادئ –التاريخ- الموضوعات- الأهداف، ص 282- 283.
28- أليكسي جورافسكي: الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى آفاق الحوار والتفاهم، ص 148 –150 .
29- بول بوبار: الفاتيكان، ص 92- 93.
30- أليكسي جورافسكي: الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى آفاق الحوار والتفاهم، ص129- 130.
31- جولييت حداد: البيانات الإسلامية – المسيحية المشتركة، ص42.
32- بسام داوود العجك: الحوار الإسلامي – المسيحي، ص 417.
33- زينب عبد العزيز: الفاتيكان والإسلام، القدس للنشر والإعلان، القاهرة، مصر، ط2، 2001م، ص97.
34- محمد عمارة: الفاتيكان والإسلام أهي حماقة أم عداء له تاريخ؟، ص 16.